المقتطف

الجزء الثاني عشر من السنة الثانية والعشرين

١ ديسمبر (كانون اول) سنة ١٨٩٨ — الموافق ١٧ رجب سنة ١٣١٦

ضيفا السلطنة

امبراطور المانيا وزوجته

لك العزّة القعساء والعددُ الذي ... عليهِ اذا عدّ الحصى يتخلّفُ
وما الذي لا تنطق الناس عندهُ ... ولكنّ هو المستأذنُ المتصرفُ
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وان نحن اومأنا الى الناس وقّفوا

وما اجدر هذا القول بعاهل الالمان ضيف السلطنة العثمانية الذي بنى لهُ جدّهُ ووزير جدهِ صرحاً فوق السماكين فصارت المانيا الدولة التي تُخشى صولتها وترجى صداقتها وتُتوخى خطتها في تنظيم الجيوش وينظر اليها الاصدقاء والاعداء نظر الغيرة من نجاحها في صناعتها وتجارتها بعد ان كانت من افقر البلدان الاوربية

وقد اتفق اننا قرأنا ترجمة هذا الملك العظيم في هذه الاثناء بقلم رجل من مشاهير كتّاب الانكليز فرأينا ان نقتبس منها الحقائق التاريخية التالية ونبني عليها هذه الترجمة العربية الوجيزة اجابة لطلب الذين قرأوا عن سياحته في المشرق

ولد ولهلم الثاني في السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٥٩ فقد ناهز الآن السنة الاربعين من عمرهِ. وكان جدّهُ الامبراطور ولهلم الاول نائباً عن اخيهِ الملك فردرك ولهلم الرابع ملك بروسيا فلما سمع اطلاق المدافع مبشرة بولادتهِ اسرع الى بيت ابنهِ ورأى الطفل فقال قد ولد لنا الآن جنديٌّ قويٌّ حسبما نشتهي. اشارة الى ان كل امير من امراء بروسيا يولد للحرب والجلاد حتى قال ميرابو ان الحرب صناعة اهالي بروسيا

وتعسرت ولادتهُ فايبست ذراعهُ اليسرى قليلاً لكن الرياضة قوّتها فلا يكاد يظهر للآفة

اثر فيها . وورث من عائلة ابيهِ الحزم والانفة والتفاني في حب الاستقامة والانصاف ومن عائلة امهِ وهي بنت ملكة الاتكليز الثبات والاقدام على عظائم الامور . وورث من ابيهِ الدعة والاهتمام بالمستضعفين ومن امهِ محبة الفنون الجميلة . فاختلفت المؤثرات التي تعرَّض لها وتنوعت الوسائل التي اتخذت لتربيتهِ وتهذيبهِ لكنها لم تؤثر فيهِ الاَّ بمقدار ما أعدَّ لها بفطرتهِ حتى اذا اشتدَّ ادركهُ وقويت ارادتهُ صار منهُ مهذَّب لنفسهِ فنشأ على احسن ما ينشأ عليهِ ابناء الملوك

يروى انهُ وهو في الشهر التاسع من عمرهِ اتى قوم من وجهاء البلاد لمقابلة ابيهِ فقابلهم وهو على ذراعهِ فاعطاهُ احدهم ساعتهُ ليلعب بها فقبض عليها وابى ان يتركها فقال لهم ابوهُ ان الدوهنزلرن (١) الحقيقي لا يفلت من يدهِ ما قبض عليهِ

واعتنى ابوهُ وامهُ بتربيتهِ اشد الاعتناء عالمين انهُ وديعة الله في يدهما ليعدَّاهُ لاعظم منصب في البلاد الالمانية وليؤهلاهُ لتولي شؤون سكانها . واقاما بعد ولادتهِ في قصر بُتسدام حيث آثار جدهِ الاول فردرك العظيم الذي انشأ مملكة بروسيا . فأثرت فيهِ رؤيتها دواماً حتى وضع نصب عينيهِ ان يقتفي خطوات جدهِ ويسير في خطتهِ ويبني لبروسيا صروح المجد بالقنا والصوارم مثل ذلك الملك العظيم

واراد ابواهُ ان لا تكون تربيتهُ حربية محضة بل ان يتغلَّب فيها العنصر المدني على العنصر الحربي خلافاً لما جرت عليهِ تربية امراء بروسيا مراعيين في ذلك احوال الزمان ومصلحة البلاد وان لا يربّى بعيداً عن امتهِ كأنهُ من طينةٍ غير طينتها على ما جرت بهِ عادة الملوك بل ان يربى مع ابناء الامة ليرسخ في نفسهِ انهُ منها ويجب عليهِ ان يشاركها في السراء والضراء . واشتدَّ الانتقاد عليهما بسبب ذلك لكنهما اغضيا عنهُ وثبتا على خطتهما معتقدين صحتها ووجوب اتباعها وافردا لاولادهما ساحة كبيرة ليلعبوا فيها ويتمرنوا على الحركات الرياضية التي تقوي الابدان ولو اتعبت بها الثياب وخصَّصوا لكلٍّ منهم قطعة من الارض يزرعها بنفسهِ ويعتني بها

ويروى عنهُ انهُ كان يكرهُ الاغتسال في حداثتهِ مثل غيرهِ من الاولاد ولاسيما بالماء البارد على عادة الاتكليز وكان يهرب من الخدم اذا ارادوا غسلهُ فهرب يوماً على هذه الصورة ومرَّ امام الحارس فلم يقدم لهُ الحارس التعظيم العسكري الواجب لامثالهِ من ابناء الملوك . ولم يكن قد اعتاد ذلك منهُ فاغتاظ غيظاً شديداً وختنتهُ العبرات وهرول الى القصر ودخل غرفة ابيهِ باكياً

(١) اسم عائلة ملوك بروسيا

شاكيًا فقال لهُ ابوهُ ما شأنك فاخبرهُ ان الحارس احتقرهُ ولم يقدم لهُ التعظيم الواجب فاظهر ابوهُ الدهشة من ذلك وقال لهُ ادنُ مني قدمًا فاحدق بنظرهِ اليهِ وقال لقد احسن الحارس في ما فعل . فدهش الولد من ذلك وقال ولماذا يا ابتي فقال ابوهُ لانهُ لا ينبغي بجندي مثلهِ ان يقدم التعظيم العسكري لامير وسخ . قال ذلك وحوَّل نظرهُ عنهُ . فوقف الولد برهةً وقد ادرك مراد ابيهِ ثم هرول الى غرفتهِ وطلب من الخدم ان يغسلوهُ ولم يعد يأبى الاغتسال بعد ذلك . والظاهر ان اباهُ امر الحارس ليفعل ما فعل

وكان عليهِ ان يتعلم التجذيف في قارب لان ابناء ملوك بروسيا يتعلمون كل الفنون الحربية البرية والبحرية . واتفق مرةً انهُ جاء الى القارب الذي يتعلم التجذيف فيهِ قبل الوقت المحدد ولم يكن البحري المعين لمساعدتهِ قد لبس ثيابهُ التي يقابلهُ بها فاشمأزَّ من رؤيتهِ واتفاهُ عنهُ وقال انهُ لا يريد ان يجذف معهُ بعد ذلك . فاغتاظ البحريُّ من هذا الكلام ونظر اليهِ مغضبًا . وكان معلم البرنس حاضرًا فقال لهُ لقد غلطتَ هذا الرجل لانهُ بحريٌّ وعليهِ واجبات ولا بدَّ من ان تُصلح ثيابهُ وهو يعمل بها فقد تسرَّعت في لومهِ ولا بدَّ من انك ندمتَ الآن لانك اهنت خادمًا امينًا من خدام الملك . فلما سمع البرنس هذا الكلام مدَّ يدهُ الى البحري وصافحهُ . ومرَّت امهُ حينئذٍ ورأتهُ يصافحهُ فسألت عن السبب ولما اُخبرت زادت في توبيخ ابنها وتأنيبهِ . فاحرِ بمن رأى هذه التربية ان تهذَّب اخلاقهُ وتدمث طباعهُ

وحاربت بروسيا ثلاث حروب كبيرة في حداثتهِ عُقد لها النصر فيها كلها وهي حرب الفنفارك وحرب النمسا وحرب فرنسا ولم يشاهد منها الاَّ رجوع الجنود وقوَّادهم ورايات النصر تخفق فوق رؤوسهم فارتسم مجد الظفر على صفحات قلبهِ رسمًا لا يشوبهُ اثر من ويلات الحروب واهوالها فشبَّ على طلب المعالي في ساحات القتال ولسان حالهِ يقول

وفي الحرب العوان ولدتُ طفلاً ومن لبن المعارك قد سُقيتُ

ولاسيما بعد ان تمثلت المانيا كلها بخمرة الظفر على اثر حربها مع فرنسا . ودرس تاريخ بلادهِ وتاريخ البلاد فرنسا خصيمتها وذرف العبرات لان حداثة سنهِ منعتهُ من الاشتراك في تلك المعارك . ولما عاد ابوهُ وجدَّهُ الى باريس مكلَّلين باكاليل الظفر لاقاهما الى محطة سكة الحديد بلباسهِ العسكري وهو في الثانية عشرة من عمرهِ وكان اول من حيَّاهما وهنَّأهما وكاد يهمل دروسهُ لكي يشترك في الحفلات التي اُقيمت لهما

وكان ابوهُ شديد الاهتمام بتهذيبهِ حتى انهُ كان يفكِّر بهِ وهو في حومة الوغى فكتب في يوميَّتهِ يوم عيد ميلادهِ يقول "اليوم عيد ميلاد ابني وهلم وعسى ان يشبَّ رجل باس

امينًا مخلصًا محبًّا لبلاده بعيدًا عن الهوى . انني ارتعب حينما أفكر في ما يُطلَب منهُ وما يُطلَب منا لتربيته وتهذيبه فانهُ لا بدَّ لتهذيبه من مقاومة مصاعب كثيرة تتعلق بتقاليد العائلة واحوال البلاط في برلين "

ولما عاد ابوهُ الى برلين اخذ يفكر هو وامهُ في امر تعليمه فقرَّ رأيهما على ارساله الى مدرسة عمومية يتعلم فيها كما يتعلم ابناء رعيته تمامًا ويجلس على المقاعد التي يجلسون عليها حتى يساويهم في كل شيء . فاعترض جدُّهُ على ذلك لانهُ كان من محبي الجاه لكن ابَاهُ لم يكن بالرجل الذي ينصرف عن عزمه اذا عزم على امر لهُ مساس باولاده فاختار لهُ مدرسة كاسل وهي بلدة اضيفت حديثًا الى الاتحاد الالماني فلا يبالغ فيها بتعظيم الاسرة المالكة ولمدرستها رئيس موصوف بالحكمة وسداد الرأي واسمهُ الدكتور نوغت . وسئل هل تقبل هذين الاميرين (وهلم واخاهُ) في مدرستك . فقال " اني احسب طلب والديهما ذلك مني امرًا مطاعًا ولكنني اشترط على ولديهما القيام بكل ما يطلب منهما والطاعة التامة لقوانين المدرسة كما اشترط على غيرهما من التلامذة ولا اسمح باقل تمييز بينهما وبين غيرهما " فكان جوابهُ هذا طبق مرام والديهما

ودخل البرنس وهلم واخوهُ هنري مدرسة كاسل سنة ١٨٧٤ بعد ان تمَّ دروسهُ الابتدائية . وزار الدكتور فيس مفتش المدارس هذه المدرسة سنة ١٨٧٥ وراها فيها وقال انهُ لم يرَ فرقًا بينهما وبين سائر التلامذة . قال وحضرت فرقة يدرس فيها البرنس وهلم اللغة اليونانية وكانت تقرأ كتاب ثوسيديدس المؤرخ اليوناني وهو من اعوص الكتاب وقد ترك المعلم الفصول الهينة منهُ واختار للتلامذة فصلاً من اصعب ما فيهِ . ولما تمَّ الدرس سألت البرنس هل قرأ غيرهُ من مؤرخي اليونان فذكر زينوفون فسألتهُ هل وجدت فرقًا بينهُ وبين ثوسيديدس فتبسم وقال نعم فاني افهم زينوفون ولكنني لا افهم ثوسيديدس . ثم اجابني عن كل مسائلي بالدقة التامة . ومدحهُ رئيس المدرسة قائلاً انهُ يخضع لكل قوانينها عن طيب نفس ويعامل التلامذة بالدعة التامة مع حفظهِ مقامهُ . ومدحهُ المعلمون على اجتهادهِ فقد كان متحليًا باشن حلية من حلى بيت هوهنزلرن وهي القيام بالواجب . وكان التعليم في تلك المدرسة لا يقتصر على تهذيب العقل بل يتناول تقوية البدن فكان البرنس يشترك مع التلامذة في الالعاب الرياضية وفي التطواف سيرًا الى البلاد التي حول المدرسة فيطوف فيها يمسح الارض او يبحث في جيولوجيتها او يجمع نباتاتها فيقرن العلم بالعمل ويجمع بين الرياضة والنزهة . وتعلَّم هناك السباحة ومهر فيها رغمًا عن ضعف ذراعهِ . لكن ذلك كلهُ لم يخلُ من ذهنهِ انهُ من طبقة اعلى من

طبقت سائر التلامذة لاسيما وان والديهِ كانا يزورن المدرسة احياناً فيقابلها اهل البلد بالاحترام الواجب لامثالها وهو يقرب من العبادة في بلاد المانيا . فكان يهش الى التلامذة كواحد منهم ولكنهُ لا يغضي عن كرامة نفسهِ كاميرٍ من الامراء

وتمَّ دروسهُ في تلك المدرسة وجاز الامتحان واحرز وساماً من وسامات ثلاثة أُعطيت لثلاثين من فرقتهِ . ولما وقف ليشكر رئيس المدرسة على اعطائهِ اياهُ قال " لقد سررت جدًّا بحظك باياي هذا الوسام لانني اعلم من نفسي انني بذلت كل ما في طاقتي لاكون مستحقًّا لهُ " . وتقضي قوانين تلك المدرسة على كل تلميذ يتم دروسهُ فيها ان يعين الحرفة التي يختارها فقال انهُ اختار " الادارة والقضاء "

وعاد الى برلين بعد ان جاز الامتحان لكي يحتفل ببلوغهِ سن الرشد وهو السنة الثامنة عشرة ويحق لهُ حينئذٍ ان يتقلَّد نشان النسر الاسود وهو اسمى نياشين المانيا وقد قال واضعهُ الملك فردرك الاول في الشهادة التي تعطى معهُ ان النسر الذي فيهِ في احدى يديهِ اكليل من الغار وفي الاخرى صاعقة من الصواعق وقد كتب فوق رأسهِ باللاتينية *Suum cuique* (اي لكل احد ما لهُ) . فالاكليل علامة الجزاء العادل والصاعقة علامة القصاص العادل وكلمة لكل احد مالهُ علامة على اننا نجازي كل احد حسبما يستحق من غير محاباة . ومعلوم ان النسر يطلب العلاء ويسمو الى الشمس ولا يتوخَّى الدنايا فهذه الاوصاف تذكِّرنا نحن وفرساننا بانهُ يجب علينا ان نتقدَّم بمطالبنا الى الله العلي . وقولنا لكل احد مالهُ يدلُّنا على انهُ يجب ان نعطي الانسان مالهُ ونعطي الله ما لهُ ونتعهد كلنا لنقوم بهذا الواجب نحوهُ تعالى . ثمَّ ثبِّت في الكنيسة الالمانية باحتفال عظيم حسب عوائدهم

واحتفل الامبراطور وملكهِ الاول بميلادهِ التسعين وخاطب ابنهُ وقواد جيشهِ حينئذٍ بكلام مؤثر في النفس معدِّدًا امجاد اسلافهِ وقال للقوَّاد انني اتكلتكم على حفيدي فابذلوا جهدكم في تعليمهِ فنون الحرب وتدريبهِ فيها لكي يكون خير خلف لسلفائهِ . ثم التفت الى البرنس وسلم وقال لهُ اذهب الآن واعمل ما يطلب منك وليكن الله معك واخذهُ ايومُ ذلك اليوم الى بتسدام وعرَّفهُ بالفرقة التي انتظم فيها من فرق الجيش الالماني فجاز الامتحان المدرسي ونال وسام الشرف وثبِّت في الكنيسة وقُلِّد نشان النسر الاسود وسمع جدُّهُ يعدِّد امجاد اسلافهِ وانتظم في الجيش وأُمر بان يلقي اعتقادهُ على الله . كل ذلك في بضعة ايام . فاحر بمن تفعل بهِ هذه الفواعل الخطيرة ان يشبَّ على النبل والشهامة

وخدم في الجيش كواحد من افرادهِ لان الخدمة الالمانية صارمة جدًّا لا تميز فيها بين

الرفيع والوضيع ودرس فنون الحرب على ابيها وكان ضباط الجيش يكرهون رجال البحرية فلم يشاركهم في هذه الكراهة بل عقد النية على تعزيز البحرية من حداثته

وسنة ١٨٧٧ ارسل الى مدرسة بون الجامعة فتمم دروسهُ العالية فدرس فيها الفلسفة والطبيعيات والكيمياء وتاريخ الفنون والقانون الرومائي والقانون الالماني وعلوم الاقتصاد والمالية والادارة. واتمَّ دروسهُ فيها سنة ١٨٧٩ وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ. وطلب ان يسمح لهُ بالاشتراك في الخدمة العسكرية في الجيش والادارة فاطلعهُ البرنس بسمارك على اسرار السياسة وخرَّجهُ في اساليبها وقصد ان يقصي عنهُ كل المؤثرات الاجنبية فعزم على تزويجهِ بأميرة المانية من غير بيت الملك فاختار الاميرة اوغسطا فكتوريا ابنة دوق شلسويك هولستين سندبرج اوغسطنبرج وخطبها الى ابيها سنة ١٨٨٠ واقترن بها في السابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٨١ باحتفال عظيم. وهي من فضليات النساء تعيش مع زوجها بالبساطة التامة حتى الآن فينهضان باكرًا جدًّا ويفطران سوية ويتغديان الظهر ويتعشيان عشاء خفيفًا في المساء ولا يسهران طويلاً. وهي تقضي وقتها في تربية اولادها وادارة الجمعيات الخيرية وخياطة الثياب للفقراء

وقد اخذ نفسهُ لخصمهِ الرفيع على صورة أخرى ايضًا وهي انهُ تعلَّم الانكليزية والفرنسوية والايطالية. ثم رأى ان لا بدَّ لهُ من درس اللغة الروسية فأكب على درسها بعد ان تزوج حتى تعلَّمها جيدًا. وهو اول ملك من ملوك بروسيا درس هذه اللغة. وزار روسيا بعد ان تعلمها وكان الروسيون حاقدين على الالمان بسبب حوادث البلغار فخسر استعراض الجيوش الروسية وكل الضباط والجنود بلغتهم فسرَّهم سرورًا عظيمًا وازال ما في نفوسهم. وبلغ جدهُ الامبراطور وليم الاول ذلك فطار فرحًا وقال ان حفيدي اتمَّ في يوم واحد عملاً عجزنا عن اتمامهِ في شهور كثيرة

وتوفي جدهُ الامبراطور وليم الاول في ٩ مارس سنة ١٨٨٨ وخلفهُ ابوهُ الامبراطور فردرك وكان مريضًا فلم تطل ايامهُ. وجمع البرنس رجالهُ قبل ذلك ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٨٧ وفرَّق عليهم الهدايا وطلب ان يصلوا الى الله ليشفي اباهُ. ثم قال لهم اني اسألهُ تعالى ان يقدركم على ان تكونوا امناء دائمًا ولا تنسوا ان جلالة الامبراطور يقول ان قوة جنودنا قائمة على ثلاثة دعائم الشجاعة والطاعة والامانة وجديرٌ بنا ان نظهر امانتنا لهُ بقولنا نعيش امبراطورنا وقائد جيوشنا العلم عمرًا طويلاً. وبمثل ذلك كان يظهر للملإ انهُ جندي مطيع وان شغفهُ بالجندية يدومهُ معها قال ومعها فعل

وتوفي ابوهُ الامبراطور فردرك في شهر يوليو سنة ١٨٨٨ بداء عضال شاعت فيهِ مهارة الاطباء فقبض على ازمة السلطنة الالمانية بيديهِ ولم يطل عليهِ الزمن حتى حمل بسمارك على الاستعفاء فاذهش المكونة بفعلهِ ولكن العارفين بسيرة ذلك الوزير الخطير واستبداده وميل الامبراطور ولهِ الى الاستقلال في الرأي لم يندهشوا كثيراً ولا قدَّروا قبل ذلك ان اتفاقهما يبقى طويلاً . وقد ارتفعت شكوى بسمارك وانصارهِ مما حلَّ بهِ لكن الامبراطور بذل كل ما في وسعهِ لاسترضائهِ وتخفيف الامر عنهُ ولم يفد بكلمة يظهر منها انهُ شكر لفضلهِ وجاحد لجميلهِ او انهُ لا يقدرهُ قدرهُ

وقد زادت البحرية الالمانية قوةً في ايامهِ ولم تضعف الجندية بل بقيت في مقامها الاول بين جنديات الدول الاوربية . واهتمَّ باكبر مسألة من المسائل التي تشغل افكار الناس في هذه الايام وهي مسألة العمال واعطائهم حقهم من ارباب الاعمال . واعرب عن اهتمامهِ برجال العلوم والمعارف وقادة العقول والافكار مثل سبنسر وباستور وكوخ وبهرين ورو وغيرهم من الذين نفعوا نوع الانسان بآرائهم ومكتشفاتهم ومخترعاتهم الرتب والياشين . فاعتذر بعضهم عن قبولها مثل سبنسر وباستور وقبلها البعض الآخر شاكراً

ويجب على كل عارف بالجميل ان يعترف بهِ ولكن لا ينبغي ان يعترف بهِ على اسلوب غير مقبول عند صاحب الجميل . فلو اهدى الى سبنسر عشرة آلاف جنيه ليطبع بها كتبهُ ويوزعها على طلبة العلم الفقراء الذين يخص جداً لقبل سبنسر هديتهُ هذه مع الشكر . ولكن ان يهدي اليهِ قطعةً من الذهب يعلقها في صدرهِ كأنهُ من الذين يعبأون بالحلى البرَّاقة او كأنهُ من الذين لم يُعرَف فضلهم فيحتاج الى علامة يعرَف بها ذلك ما لو فكَّر فيهِ ملكٌ لعدل عنهُ من نفسهِ . والراسخ في ذهننا انهُ لم يهدِ الشان الى سبنسر بل استشارهُ في اهدائهِ اليهِ فاعتذر عن قبولهِ

وقد زار اكثر العواصم الاوربية ولقي فيها الحفاوة والاكرام اللائقين بمقامهِ . ومن الذين زارهم البابا ليون الثالث عشر ويقال انهُ لم يتبيَّل يدهُ على جاري عادة الملوك حينما يزورونهُ بل عانقهُ معانقة قرَّ البابا بهِ سروراً عظيماً

اما زيارتهُ الاخيرة للاستانة العلية عاصمة السلطنة العثمانية مع جلالة الامبراطورة زوجتهِ وما لقيا فيها وفي بلاد الشام من الحفاوة والاكرام فقد افاضت في وصفهما الجرائد اليومية . ويظهر مما يُروَى عنهما انهما سرَّا بزيارتهما هذه سروراً عظيماً